بُرْهَانْ

محمد ربيع – مصر

في ذلك اليوم الذي تَبَرَّأَتْ منه الشمس؛ تَسلّم مفاتيحَ مسكنِه الجديد، شقةٍ بعقارٍ متآكلِ الوجهة، قاتمِ الطَّلْعة، تَرْتَابُ نفسُك منه وتجزعُ لأول وَهْلةٍ، وفي تلك الحارة العتيقةِ البائسةِ التي تُشْبِهُ أطلال الأمم السحيقة؛ اتخذ هذا الغريبُ مقرًّا لسَكَنِه، وعمله الخاص والعام في آنٍ، بات الغريب قريبًا ومألوفًا لدى أهل الحارة البؤساء؛ فكان يتردَّدُ على محالِّهم، ويشاركُهُم المناسبات حتى إنَّه تزوَّج من (سلطانة الحسن)؛ بهذا اشْتَهَرتْ (حسناء) ابنةُ بائعة الخضار على إحدى نواصي الحارة -تلك الغَجَرِيّةُ البيضاءُ الطاغيةُ الأنوثة-، لم يشترطْ النزاهة، قطعًا كان يعلم شيئًا من سيرتها الحافلة مع شبابِ الحيِّ بل والأحياء المجاورة.

على الجانب الآخر، وبمبدأ "ضِلّ راجل ولا ضِلّ حيط" تم الزواج من صاحب الأصول الإفريقية الذي توارتْ بظِلِّه عن عري الشارع الذي لا يرحم برًّا ولا فاجرًا.. لكنّه كان هادئًا ودودًا، دائمَ الصمت، تعلو مُحَيَّاهُ ابتسامةٌ دائمةٌ لم يرق لها تفسيرا إلا أنه أحدُ المتصوِّفة.. بدأ (الشيخ برهان) عمله منذ أول يوم وَطِأَتْ قدماه تلك الحارة الموبوءة بكلِّ أسباب التخلف من فقرٍ وجهلٍ ومرضٍ وما شابه؛ فالكهرباء لم تنقطع كالعادة بعد التاسعة مساء؛ بفضل حلولِ بركتِه على أهل الحارة المحظوظين، وها هو (علي) ولد (المعلم حمودة العطار) يبرأ من حالة صرعٍ بفضل تميمةٍ سحريةٍ ترافقها تَمْتَماتٌ قد أعدها (الشيخ برهان الدِّين) كان هذا في إطار الاستعداد لما هو قادم من أحداثٍ

ستقلب الحارة رأسًا على عقب؛ فما هي إلا سويعات حتى فشا أمر كرامتِه في أنحاء الحارة، ومنها إلى أن طبق ذكره الآفاق وراجتْ بضاعتُه، وتهافَتَتْ على خزائنه أموالُ الناس، وانتقل بزوجِه الفاتنةِ إلى مرحلة من التَّرَفِ؛ ما جعلها لا ترجو أكثر من ذلك، إلا أنّ سعادتها توقّفتْ مؤقتًا لظرف طارئٍ لم يستطع رَدَّهُ أحد لا (برهان الدين) ولا غيره؛ ألا وهو وفاة والدتِها التي كانت قد انتقلت للعيش معهما والاستغناء عن تجارتها التي لم تعد بحاجةٍ إليها!

وتدور رحى الحياة، وينسى الأحياءُ من رحلوا سريعًا، وكانت (حسناء) لا تكف عن مطالبة (الشيخ برهان) بِقُرَّةِ عين كي تنعم بأمومتِه ويؤنسَها سيما وأن أسفار (برهان الدين) قد كثرت وطالتْ حتى إنه ليغيب بالشهر والشهرين، يجوبُ الأقطار ويجمع الأموال الطائلة معتمدًا في ذلك على مهارته وقدرته وهيئته التي يُعتقد فيها الصلاح والصلة، ولكنه كان يرفض طلبها بشيء من الحسمِ لحاجة في نفسه آثر تفرده بها!

وحيدةً (سلطانة الحسن) تنعي فوت ربيعها المهجور ما بين البخور والتمائم والأرواح والتعاويذ التي قد أَلِفَتْها بحكم العادة، وما بين حرمانها من الذرية قهرًا، ولكنها الآن وحيدة مع الرجل القوي الذي تنحني له رؤوس البشر طمعا ووقاية؛ بفضل معارفه العُلوية والسُّفلية، ولكنّها لم تيأس؛ ظَلَّتْ تحاول معه وتُلحّ بكل ما أوتيت من سبل برغبتها في إنجاب طفل يحمل اسمه وتأنس هي به حتى رَقَّ ولان لأمرها؛ وكان ما أرادت (حسناء) وفي تلك الأثناء؛ علق الشيخ لافتةً على باب بيته مفادها (تمنع الزيارة قطعيا لأسباب خاصة)، فتفهم الناس الأمر وأيقنوا أنه في خلوة مع الأسياد والأفضل ألا نزعجُه بطلباتنا حتى

يخرج إلينا بالبُشْرى؛ فَتَمَّ لها ما أرادت وتم له ما أراد.. بعد مرورِ شهرٍ خرج (برهان الدين) تملؤه الثقة حدَّ الغرور، والجِدَّةُ بدت جليةً على ملامح وجهِه، ولكنه بعد لم يُزِلْ اللافتة مما أقلق جيرانه وارتابت أفئدتُهم من أمر ما صنعه الشيخ، وانطلق في أحد أسفاره متفردًا بعلم وجهته كالعادة.. ولكن أحدًا ما تجرَّأَ على خرق اللافتة التي وضعها الشيخ.

كان يتردَّد هذا الشاب الوسيم على بيت (الشيخ برهان) خفية أثناء ترحاله؛ لحاجة (سلطانة الحسن) إلى ونيسٍ قديمٍ لطالما كانت تطمئن بوجوده، وكان يشبعها هو الآخر بطريقة تكاد تجن من فرط لذتها معه، الأمر الذي غاب عن إدراك الشيخ العارف. وما إن تجاوز هذا الشاب بوابة البناية الرئيسية التي امتلكها (برهان الدين) حتى اصطدم بِقُفْلٍ سميك على باب الشقة مما أثار فضوله؛ هَرْوَلَ مسرعًا وأتى بآلة حادة ليفتك بهذا القفل؛ ثُمَّ دخل ليستكشف الأمر بحكم معرفته المسبقة بتفاصيل البيت!

بحث في كلِّ الحجرات إلا واحدةً كانت خاصة بالشيخ لم يتمالك فضوله حتى فتك ببابها ليذهلَه ما رأى من رؤوس الكباشِ، وبعض الدُّمَى، وعظام الإنسان التي تستخدم في أعمال (السحر الأَسْود) المعمول به حتى الآن في أنحاء كثيرة من العالم وما هي إلا ثوان معدودة حتى ارتعدت فرائصه وارتجف حينما رأى بزاوية الحجرة ما يشبه جُثَّةً، وجدها كفرخةٍ مَخْلِيَّةِ العظام؛ خرج مسرعا لينقل الخبر.

كان (برهان الدين) أثناء رحيلِه جَمَعَ أَعَزَّ ما يملك من متاعٍ في حقيبة صغيرةٍ وَقَرَّرَ اللاعودة!